الجمهورية صفحة ٦

* العدد ١٣٧٢٩ * الجمعة ٢٩ ذو القعدة ١٤٢٦هـ * الموافق ٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٥ م

الوريث ودوره في حركة الإصلاح باليمن

•.. أحمد عبدالوهاب الوريث، من مواليد رمضان ١٣٣١هـ، الموافق ١٩١٢م، درس في مدارس ذمار مسقط رأسه، ومنها تخرج، ألمَّ بكثير من علوم عصره من فقه وأصول دين وشريعة وحديث وتفسير وعلوم اللغة العربية المختلفة، اهتم بقراءة كتب الأدب القديم والتاريخ والفقه وغيرها.

د.علوي عبدالله طاهر

بدأ نشاطه الثقافي بمقالات نشرت في الصحف المصرية حينذاك باسم مستعار «يمني غيور» ثم تحمل رئاسة تحرير مجلة الحكمة اليمانية ويعتبر مؤسسها، ومن خلالها أرسى قواعد ثابتة للبدايات الصحيحة للصحافة اليمنية، مما يصح أن نطلق عليه رائد الصحافة اليمنية، توفي عام ١٣٥٩هـ الموافق ١٩٤٠م عن عمر لم يتجاوز ٢٨عاماً.

لقد كان أديباً وكاتباً نابغاً، من رواد الإصلاح والتجديد في اليمن، اشتهر بصراحته وجرأته في الحق ومصارعة الباطل، مسقط رأسه «ذمار» حيث عاشت أسرته، وانتقل مع والده إلى «يريم» حين عين قاضياً عليها وبها تتلمذ، أقبل بعد طلوعه إلى صنعاء على الأدب، وبرز في علوم العربية، وكان أول رئيس تحرير لمجلة «الحكمة اليمانية» وكتب فيها مقالات كثيرة.

وصدر العدد الأول من مجلة الحكمة اليمانية في صنعاء في ذي القعدة ١٣٥٧هـ الموافق ديسمبر ١٩٣٨م، وقد عرفت نفسها في صدر غلافها بأنها «مجلة علمية جامعة شهرية» وكان شعارها «الإيمان يمان والحكمة يمانية» وكانت تصدر عن وزارة المعارف وتحت إشراف وزيرها الأمير/عبدالله ابن الإمام يحيى، وكانت مصروفاتها جزءاً من مصروفات وزارة المعارف، ولم يكن يتقاضى أي من محرريها شيئاً مقابل كتاباتهم، بل كانت جميع مقالاتها مجانية، وربما كانت توزع بالبريد إلى الحديدة وتعز وذمار وإب، وترسل بعض أعدادها إلى عدن «المستعمرة حينذاك» أما في صنعاء فقد كانت توزع باليد من قبل بعض المراسلين في الدوائر الحكومية، وتستقطع الاشتراكات من مرتبات الموظفين.

وكانت تطبع في مطبعة المعارف بصنعاء، وتحوي٣٢ صفحة في الغالب قطع ٢٥× ١٥سم، ومن محرريها إلى جانب الوريث كل من أحمد المطاع وعبدالله العزب، وأحمد الحورش، وأحمد البراق وأحمد المروني.. وغيرهم..

وقد بذل هؤلاء وغيرهم جهوداً شاقة في تحريرها واستمرارها في نشر الوعي والثقافة، وكانوا يعملون في ظروف صعبة للغاية، وإمكانات شحيحة، بل معدومة إلا من مطبعة قديمة يدوية كان الأتراك قد تركوها بعد رحيلهم وهي الوحيدة في مملكة الإمام يحيى كلها، وكانت تطبع إلى جانبها جريدة «الإيمان» ولم يكن يسمح بطباعة أي شيء في هذه المطبعة اليتيمة إلا بإذن شخصي من الإمام.

وكانت مجلة الحكمة قد صدرت بعد هزيمتين قويتين لسلطة الإمام يحيى: الأولى هزيمته أمام زحف القوات الإنجليزية على بعض أنحاء مملكته، واضطراره لتوقيع اتفاقية اعترف بموجبها بالوجود الانجليزي في الجزء الجنوبي المحتل من اليمن، وذلك في فبراير ١٩٣٤م، والهزيمة الأخرى أمام الغزو السعودي واستقطاع عسير ونجران وجيزان

وقد أظهرت هاتان الهزيمتان ضعف الإمام يحيى وتناقص هيبته التي ارتكزت على الوهم والشعوذة، مما شجع على بروز حركة المعارضة، وفي ذلك يحدثنا القاضي/عبدالله الشماحي قائلاً:

«وهنا انطلقت الألسنة من عقالها لنقد الوضع والجهاز المعتمد عليه الإمام وحكمه، وتتمخض هذه البلبلة وهذا النقد عن اتجاهين، اتجاه نحو حياة متطورة متحررة من قيود الإمامة الزيدية والحكم المطلق، ومن كل ما يقف في طريق التقدم باليمن إلى مستوى الحضارة المعاصرة على أن يكون ذلك التقدم في إطار الروح الإسلامية الصحيحة، وهذا ما كان يهدف إليه المستنيرون من الشباب بقيادة أبي الثورة أحمد بن أحمد المطاع العلوي، واتجاه آخر شبه معاكس للاتجاه الأول فهو يطالب بالإصلاح، إلا أنه يربطه بإحياء الدعوة الزيدية وإمامتها، وبذلك فهو يرى أن يطالب الإمام يحيى بإصلاح جهاز حكومته والإدارة المتبعة بأن يدخل في جهاز الحكم والإدارة عناصر قوية من ذوي الكفاءة والنزاهة القادرين على التقدم باليمن وحماية الدعوة الزيدية من التعثر أو الاستئثار».أ.هـ.

وقد وجدت حركة المعارضة من الاتجاهين في مجلة الحكمة بعض التنفس للتعبير عن مطالبها في الإصلاح وتطوير البلاد، فظهرت على صفحاتها المقالات الجريئة التي تنادي بالإصلاح، وتلك التي تتحدث عن العمل الصالح بهدف الاقتداء بهم، في العدل والشجاعة والاهتمام بالرعايا وتفقد أحوال الأمة وتلك التي تحث على الجهاد ومواصلة الكفاح من أجل استعادة الأجزاء المحتلة من اليمن، وتلك التي تدعو إلى تحسين أوضاع الجيش وتطويره.. وغيرها من المقالات التي لم يكن من الممكن ظهورها على مجلة «الحكمة» لولا تضعضع موقف الإمام يحيى على إثر انكسار جيشه في مواجهة خصمين في شمال البلاد وجنوبها..وما يهمنا في هذه الورقة هو الحديث عن مقالات أحمد الوريث المنشورة في هذه المجلة، من حيث موضوعاتها، وأساليبها، ورؤاها الفكرية.

اهتم الوريث اهتماماً كبيراً بالقضايا التاريخية التي أسقطها على الواقع السياسي في اليمن أيام حكم الإمام يحيى حميد الدين، حيث نشر تسع حلقات متسلسلة في مجلة الحكمة اليمانية بعنوان الاصلاح، ومات قبل اكتمال السلسلة، ثم أكملها فيما بعد زميله أحمد المطاع، فواصل الكتابة تحت العنوان نفسه، حتى بلغ مجموع المقالات ثمانية عشر مقالاً، منها مقال للوريث نفسه نشر بعد وفاته.

وكان الوريث قد أشار في افتتاحية العدد الأول من مجلة الحكمة ان مجلته قد «أخذت على عاتقها السعي في الإصلاح والدعوة إلى الخير وتهذيب الأخلاق والثقافة الحقة، ذلك أن الوريث قد وجد في المجلة فرصة للتوعية والتنوير ولنشر الأفكار الاصلاحية حتى تسير البلاد في طريق التقدم والتطور.

ولم يكن في مقدور الوريث أو غيره حينذاك نشر الأفكار الإصلاحية في معزل عن الدين، لذلك أضفى على كتاباته طابعاً إسلامياً، مجاراة للاتجاه السائد في المجتمع اليمني حينذاك، وانسجاماً مع ميوله وثقافته التي يغلب عليها الثقافة الإسلامية التقليدية.

ومن يقرأ مقالات الوريث المنشورة في مجلة «الحكمة اليمانية» تحت عنوان «الإصلاح» سيجد أنها مقالات سياسية مغلفة بغلاف تاريخي، غايتها معارضة سياسة الإمام يحيى بنفس السلاح الذي كان يرفعه وهو «الدين» ربما لخوفه من عتاب الإمام يحيى، إذا ما تعاطى مع القضايا المحلية بأسلوب مباشر، لذلك انتهج أسلوب الكتابة التاريخية للتغطية على مراميه السياسية، فقد كتب عن عدل الخلفاء الراشدين، وعن أساليب إدارة الحكم في الدولة الإسلامية، وكتب عن الفتوحات الإسلامية، وعن اهتمام خلفاء بني العباس بالعلم والعلماء، وكأنه يقول للإمام يحيى ورجال حكومته: انظروا كيف كان المسلمون يحكمون، ثم قارنوا بين أسلوبكم في الحكم وبين أساليبهم، ولذلك كان يختم مقالاته بعبارة: «كان هذا شأن الإسلام ورجاله، فأين نحن اليوم؟».

إنه في مقالته الأولى المنشورة في العدد الأول من الحكمة وتحت عنوان «الإصلاح» تحدث الوريث عن حالة العرب قبل الإسلام، وبعده، وعن ماضي المسلمين وحاضرهم، ثم تساءل: كيف يستعيد المسلمون سيرتهم الأولى؟ في إشارة منه إلى ضرورة الاقتداء بالمسلمين الأول، فهو بعد أن ذكر أحوال العرب قبل الإسلام، ذكر ما وقع بعد ذلك للعرب، منذ مجيء النبي محمد «صلى الله عليه وسلم» فقال:

«قام محمد بن عبدالله رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم فنادى فيهم بأعلى صوته داعياً لهم بأمر ربه إلى الإيمان بالله وحده وإخلاص العبادة له، ورفض ما سواه ممن خلقه . جاء بتعاليمه ليجتث جذور الوثنية ويطهر العقول من الأوهام الفاسدة، ويوقظ الأفكار من سباتها، ويوجهها إلى التأمل والتفكر والاعتبار، ويطلقها من قيودها التي صدتها عن النظر الصحيح، أتى مرشداً إلى الأخلاق الفاضلة والشيم العالية والمزايا الطيبة، أنحى على الاختلافات الحزبية وهدم أركان العصبية الجنسية والفرقة الجاهلية، وعلمهم أن المسلمين كتلة واحدة لا تفاضل بينهم إلا بطاعة الله ورسوله وتنفيذ أوامرهما.

بين لهم أن الخير كل الخير في ائتلاف القلوب واتفاق الأهواء واتحاد الآراء، وأن الشر كل الشر في التباين والاختلاف والتشاحن والتباغض، أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والتعارف والتراحم والتعاون على البر والتقوى، وإعطاء الحقوق لأربابها..أمر بالعدل والإحسان ومواساة الفقراء والمساكين واليتامى والبائسين، حض على تحرير الرقاب وتخليص الأفراد والجماعات من الرق والاستعباد، أمر بالمسارعة في كل خير ومجانبة كل شر، فلا قتل ولا زنى ولا سرقة ولا خمر ولا ميسر ولا غل ولا خداع ولا ظلم ولا ربى ولا عدوان ولا رياء ولا نفاق ولا عداوة ولا شقاق ولا شح ولا بخل ولا فخفخة ولا إسراف، أمر بأن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة لا طمعاً في سلب الأمم استقلالها، ولكن في نشر الحق بينهم، والدفاع عن حماه، لا امتصاص لدماء العالم وأمواله، ولكن لبث العدل بين أفراده ورفعة مقامه» أ.هـ..وليس بخاف أن الوريث في هذه المقالة يلخص المبادئ التي أتى بها الإسلام، ليشعر قارئه أن الانتماء إلى الإسلام ينبغي أن يقترن بالتمسك بتلك المبادئ السامية فعلاً لا قولاً.

وأضاف الوريث في المقالة ذاتها قائلاً عن الإسلام إنه:

«قرر أن السعادة الأخروية لا تنافي السعادة في الدنيا، وأن المدنية والحضارة إذا قصد بهما خير البشر وتسهيل المنافع في الحياة وإظهار بدائع الوجود، فهما مما يدعو إليه، كما قرر أن أكبر سبب في بقاء الأمم هو في صلاحيتها للبقاء بالعلم والعمل، والأخذ بأسباب الحياة، لا يتمنى الأماني الباطلة وإزجاء الآمال السرابية.

وبالجملة أمر بكل خير يفيد الأفراد والجماعات، يعود على الإنسانية العامة بالإصلاح، ونهى عن كل شر، وحمل على فاعليه، وتوعدهم بما يكبح جماح كل شرير» أ.هـ..ويتضح من هذا القول إن الوريث يرمي إلى حث الناس للسعي لبناء الحياة وإقامة الحضارة، بالعلم والمعرفة والعمل الجاد المخلص، من دون الابتعاد عن العمل للآخرة، وكأنه بذلك يقول للإمام يحيى وأعوانه إنه لا خوف من المدنية الحديثة، وحضارة العصر، ما دام القصد منها خير البشر وتسهيل المنافع للناس.

وفي مقاله المنشور في العدد الثاني من مجلة الحكمة اليمانية والذي يحمل عنوان «الإصلاح» تحدث عن الحضارة الإسلامية وما وصلت إليه من رقي وتقدم في مدة وجيزة، ثم تساءل:

«ما الذي كوّن من أشتات تلك الأمة الضعيفة الفقيرة القليلة أمة عظيمة قوية فتحت البلاد شرقاً وغرباً وأصبحت الكلمة العليا لها، والسمع والطاعة على غيرها؟ وما الذي قواها وجرأها على اقتحام تلك العقبات الكأداء في سبيل نشر دينها وتعميم السلام في الأرض؟ وما الذي ساعدها على تلك الأعمال الكبيرة والفتوحات الجسيمة في مدة يسيرة مما لم يأت لفاتح قط؟ وما الذي جعل الناس يتلقون هذه بالصدور الرحبة ويهللون ويكبرون لقدومها عليهم ويدخلون في دينها أفواجاً؟».

أسئلة كثيرة طرحها، ثم حاول الإجابة عنها، مؤكداً في إجابته أن العرب عرفوا الإسلام وأدركوا أنه جاء لخير الدنيا والآخرة، ولسعادة الفرد والجماعة، ثم نفذوا تعاليمه قولاً وعملاً سراً وجهراً، وطبقوا أحكامه على جميع أحوالهم..وهكذا ظل الوريث يكتب في التاريخ الإسلامي، وبذل هو ومجموعة من الشباب جهوداً من التنوير والتوعية، أكسب المجلة مقاماً كان له أثره في المجتمع اليمني، سيما بين الشباب، وبدا الوريث كقائد فكري منطلقاً، وكان ذلق اللسان، جزل العبارة، سلسبيلي الحديث، قوي البيان، سريع العارضة، في شمم واعتزاز بالنفس، لا يعرف المجاملة حتى مع الإمام يحيى، فهو لم ينحن له، ولم يسمح لشفتيه أن تقبلا يد الإمام، ولم يخاطبه ويطارحه الحديث إلا في صورة الند للند، مما جعل ظله ثقيلاً على نفس الإمام يحيى، ولكنه كان يتحمله ويجامله ظاهرياً، ويسعى للتخلص منه.

ويمكننا القول إن الوريث ورفاقه من محرري مجلة الحكمة اليمانية كانوا ينزعون إلى الفكر الجديد وتطوير الأساليب القديمة، وجعلها تتماشى مع مقتضيات العصر، وهم بذلك قد تتبعوا سير التفكير في العالم العربي والثورة الأدبية والسياسة التي قادها جمال الدين الأفغاني والشيخ/محمد عبده، وقاسم أمين، والرافعي وغيرهم.

واستطاع الوريث من خلال مجلة الحكمة اليمانية أن يأتي بأسلوب أدبي جديد، أيقظ به الوعي الوطني، ذلك أنه استخدم تحليل التاريخ وسيلة لتوجيه الفكر توجيهاً وطنياً وسياسياً.

ويمكن القول إن الوريث كان إصلاحياً وليس ثورياً، ربما لعدم توفر ظروف الثورة حينذاك، ولذا كان الطابع العام لدعوته هو إصلاح ما هو قائم وليس تغييره، فقد كانت الدعوة الإصلاحية إحدى طرائق الإيقاظ الشعبي لإخراج اليمن من عزلتها.

وربما كان الوريث قد تأثر بما قرأه من كتب وأفكار الإصلاحيين الإسلاميين أمثال جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده والكواكبي وغيرهم، وهي أفكار جديدة على المجتمع اليمني حينذاك، ولذلك تعتبر كتاباته جديدة بالنسبة لما كان ينشر في تلك الفترة في الصحف اليمنية.

وله الفضل في إيقاظ الوعي الوطني عن طريق الأدب، فخرج عن الأساليب التقليدية في الكتابة، وقدم تحليلاً علمياً للتاريخ، وأعطى للفكر انطلاقة رحبة، فحرره من التهيب والخوف.